



مختصر خطبة صلاة الجمعة 23/ 12/ 2022 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(مفهوم الابتلاء)

الابتلاء سنة جارية في النَّاسِ عَامَّةً وفي المؤمنين خاصَّةً، سنة جارية في المؤمن وغير المؤمن، في الصالح والطالح، في الغني والفقير، في القوي والضعيف. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

ولا تمنح الجامعات والمعاهد والمدارس رُتبها العمليَّة وإجازاتها المهنيَّة إلَّا بعد امتحان طلابها، وكلَّما علت الشَّهادة صُعب الامتحان أكثر، وكلَّما غلت المهنة عسر الاختبار أكثر.

وأما حكمة الابتلاء: فللابتلاء والاختبار حكَمٌ عديدة:

منها تمييز الخبيث من الطيب: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:31] لأن الناس في العافية متساوون فإذا نزل البلاء تمايزوا.

ومنها الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة: فالابتلاء مرتبط مع التمكن في الأرض ارتباطاً وثيقاً، ولن يُمكن الله لأمةٍ حتَّى تنجح في الاختبار ولن يمكن لفرد حتَّى يصبر عند الابتلاء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

ومنها رفع منزلة الطائعين وتكفير سيئات العاصين: أخرج الإمام البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (البخاري).

هذه سنة الابتلاء وهذه حكمته، أما أنواعه، فالابتلاء نوعان: ابتلاء بالخير والشر، وابتلاء بالأمر والنهي.

فابتلاء الخير والشر ابتلاء بالسراء والضراء، بالسرور والحزن، بالراحة والتعب، يُبتلى الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، والناجح في الاختبار والابتلاء من كان صابراً على الضراء، شاكراً على السراء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

واعلموا أيها الإخوة أن الابتلاء بالخير أشد وأثقل من الابتلاء بالشر؛ إذ الابتلاء بالشر معلوم ومشهور، أما الآخر فلا يظنه كثير من الناس ابتلاء، فهم لا يعلمون أن ما أنعم الله به عليهم من بركة في المال أو الأولاد أو الصحة، وما إلى ذلك من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، إنما هو اختبار وامتحان من الله، فالمنعم جل وعلا يستودع هذه النعم عند أصحابها ليرى كيف يتصرفون فيها. وقد قيل: القيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر.

وقال سيّدنا عمر بن الخطاب: (بُلِينَا بِالضَّرَاءِ فَصَبْرُنَا، وَبُلِينَا بِالسَّرَاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ).

وأما ابتلاء الأمر والنهي وهو النوع الثاني من أنواع الابتلاء وهو الأصعب ويسمى الابتلاء التشريعي، بمعنى أن الله تعالى يبتلي عباده بالأمر والنهي ليمتثلوا ما أمرهم به ويجتنبوا ما نهاهم عنه.

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس تصوّرهم أن الابتلاء انتقام وأنه لا يصيب إلا العصاة المعاندين، وأنهم توقعوا أن تكون حياة الطائعين في رغد وفير ومال كثير.

فنتج عن هذا التصور ضجر قوم عند نزول الابتلاء بهم، وتزلزل عقيدة آخرين.

والصواب أن الابتلاء امتحان واختبار وهو سنة الله في عباده عامة وفي المؤمنين خاصة وأن لهذا الابتلاء حكماً وأنواعاً.

والحمد لله رب العالمين